مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (03) ديسمبر 2022 ص ص 1093-1109

التحول من المشافهة إلى التدوين

بحث في ظاهرتي القراءة والكتابة في المجتمع العربي

The Shift From Oral Speech To Writing

An investigation of the two phenomena of reading and writing In arab society

علي بوشيخي*

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس (الجزائر) .

البريد الالكتروني: alibouchikhi022@gmail.com

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/06/02	2022/09/25	2022/12/01

الملخص: يهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرتي القراءة والكتابة من خلال اختراع الحرف وتطوره وانتشاره في العالم، ويسعى إلى إدراك مرامي تأثير هذا الحدث على المجتمع العربي. كان اعتمادنا في سياق البحث على تتبع هذه الظاهرة وتحليل مضامينها والكشف عن العوامل المساهمة في هذا التحول الاجتماعي والثقافي وفق المقاربة السوسيو - انثروبولوجية. حيث كانت الغاية من الدراسة هو توضيح نتائج اكتشاف الكتابة، التي تجلت في الانتقال من المشافهة إلى التدوين، وتبيان التغيرات التي طرأت على عادات القراءة في ظل البيئة التكنولوجية المتطورة، بحيث التمسنا التحول من اعتماد آليات الطبع والنشر الكلاسيكية المعهودة إلى عادات اجتماعية وثقافية تساير وتنسجم مع هذه التطورات، التي أفرزتها الحياة المعاصرة. الأمر الذي أدى إلى بروز أشكال وأنواع من الكتب والمكتبات الالكترونية، التي أصبحت تحقق الوصول السريع والفوري للمعلومات من طرف الباحث والمهتم، مثل المكتبات والكتب الرقمية .

الكلمات المفتاحية: *القراءة ؛ الكتابة ؛ المكتبة ؛ الترجمة ؛ التكنولوجيا؛ الطباعة .*

Abstract: This research aims to study the two phenomena of reading and writing through the invention of the letter, its development and its spread in the world, and it seeks to understand the goals of the impact of this event on Arab society. In the context of research, our reliance was on tracking this phenomenon, analyzing its contents, and revealing the factors contributing to this social and cultural transformation, according to the socio-anthropological approach. Where the purpose of the study was to clarify the

* **المؤلف المرسل**

results of the discovery of writing, which was manifested in the transition from oral speech to writing, and to show the changes that occurred in reading habits in light of the advanced technological environment, so that we sought a shift from adopting the usual classic printing and publishing mechanisms to social and cultural habits that go along with and harmonize with These developments, produced by contemporary life. Which led to the emergence of forms and types of books and electronic libraries, which have achieved quick and immediate access to information on the part of the researcher and the interested, such as libraries and digital books.

Keywords: *reading; writing ; library ; translation ; technology ; printing*

مقدمة:

يعتبر تاريخ نشأة وتطور المجتمعات البشرية جزءا وامتدادا لتاريخ الطبيعة منذ ظهور الإنسان الأول، نتيجة التفاعل والتأثير المتبادل بين أفراد البشر، هذا المخلوق المتميز عن باقي المخلوقات الحية والمتفوق عليها، والمتعايش مع كل أنواع الظروف البيئية والنباتية والحيوانية، والمنتصر في البقاء على الوجود لأنه إنساني جماعي وحضاري .

استغل هذا التفوق بعقله وأفكاره، وحسن ظروف حياته من خلال ملاحظته للظواهر الطبيعية أثناء اتصاله المباشر معها، وتكونت لديه معارف وخبرات من خلال تفاعله المستمر بينه وبين البيئة، وطور أساليب عيشه إلى أن وصل إلى المجتمعات المنظمة، لكنه لم يسجل شيئا عن المعارف العلمية، واقتصر على ممارستها عمليا، لأنه لم يكن يعرف الكتابة والقراءة. ولكن بعد استعماله الأدوات المعدنية والتحسين المستمر للأدوات الحجرية، نتيجة التطور في مختلف حياته المادية والفكرية، حول كلامه إلى رموز خطية، والتي تعددت أنواعها: منها التصويرية، المقطعية والأبجدية، فاخترع الكتابة ودون لغته وسجل أفكاره ونقلها إلى الأجيال اللاحقة، وتراكم التراث الثقافي وظهرت حركة التدوين في مختلف أنحاء العالم بما في ذلك المجتمع العربي.

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة عن الأسباب والظروف الاجتماعية والأنتروبولوجية التي أدت إلى التحول الاجتماعي والثقافي للمجتمع العربي، والانتقال من

مجتمع مبني ثقافته على المشافهة إلى مجتمع يعتمد عل التدوين والخط في معاملاته المختلفة، وهذا من خلال تتبع تطور ظاهرتي الكتابة والقراءة، والكشف عن الظروف والعوامل المؤثرة فيها والمساهمة في هذا التطور، وإظهار انعكاساتها على المجتمع؟ نسعى من خلال هذا الموضوع إلى دراسة هذه الظاهرة وتتبع تطورها وانتشارها وإبراز تأثير هذا الاكتشاف على المجتمع العربي وتغيير عاداته، معتمدين في تحليل مضامين هذا البحث على المقاربة الانثروبولوجية .

أهمية البحث في ظاهرتي القراءة والكتابة:

أصبح هذا الموضوع من المواضيع المتشعبة، تعددت فيها المقاربات واتسعت فيها التخصصات، التي تعمل ضمن إطار معرفي ذو أبعاد ووظائف متنوعة، ومتعدد البحث في الحقول الاجتماعية والثقافية، الأمر الذي أضفى عليها معاني متعددة وأشكال ثقافية جديدة، مع ظهور التكنولوجيات الحديثة. وظل في التطور المستمر نتيجة انتشار الاختراعات والتمدرس والتوزيع الواسع للكتب، وازدادت الأهمية الاجتماعية للقراءة في هذا العصر بازدياد دور النشر والتوزيع، وشغلت الكتابة والقراءة العديد من الباحثين والمهتمين من مجمل التخصصات خاصة في المجتمعات الغربية، والتي نظر إليها كظاهرة إنسانية، اجتماعية وثقافية تستدعي التنقيب والتمحيص.

حولت الكتابة حياة البشر تحولا ثقافيا كبيرا، ونتيجة لاختراع الحرف بدأت ظاهرة القراءة بوجود أول كاتب، وظلت القراءة والكتابة متداخلتين ومتصلتين، بحيث شكلتا علاقة عضوية، " فالتاريخ الحقيقي في القراءة هو في الواقع تاريخ كل قارئ في القراءة" (ألبرتو، 2001، صفحة 36). وأن فعلي الكتابة والقراءة متلازمان ومتداخلان، غير أن الكتابة تتقدم القراءة زمنيا،"ولذة القراءة انعكاس لذة الكتابة، وكان القارئ طيف الكاتب." (حبيب، 2007، صفحة 21).

شكلت الكتابة ومنذ زمن بعيد الوسيلة الأساسية في تثبيت اللغة وفي الحفاظ على الفكر، واستطاعت أن تتجاوز الصعوبات التي تعيق عملية الاتصال بين الناس، وأمنت لهم معاملاتهم الاقتصادية والسياسية، وحسب بارث Barthes " كل وصف علمي حتى ولوكان متعدد الأوجه لا يستنفذ ظاهرة القراءة" **(**Barthes, 1991, p. 336**)**.

تعتبر القراءة عملية تفاعل بين الكتاب والقارئ، فالقراءة تفترض وجود الكتابة "، وتطورها الروحي ارتبط بتطور تقنياتها وهياكلها الاقتصادية والاجتماعية، فهي من أهم الوسائل لكسب المعرفة والاتصال وتوجيه السلوك، ولها الأثر البالغ في تكوين شخصية الإنسان، وهي ظاهرة اجتماعية وثقافية لها تأثير على التقدم العلمي والثقافي، وفي رأي فرنسيس بيكون هي تصنع الإنسان الكامل وحسب فولتير Voltaire"يقود الأمم هؤلاء الذين يقرؤون ويكتبون" (أحمد ، 2013، صفحة 24).

الواقع الاجتماعي وممارسة فعل القراءة:

عندما نستقرأ التاريخ نجد أن من الدراسات الأولى لهذه الظاهرة دراسة نيكولا روباكين (N.ROBAKINE)، والتي تعتبر أنموذجا وجاءت لتحديد مختلف الطبقات الاجتماعية وعلاقتها بممارسة القراءة، حيث حاول هذا المفكر الروسي "دراسة العمليات النفسية لصانع الكتاب، وهذا من خلال تحليل مختلف أشكال الكتب وحركيتها، وتأثيرها على نفسية القارئ" **(**Chantal , 2003, p. 68**)**.

كما تعرض لهذا الموضوع أيضا مجموعة من الباحثين الأمريكيين من جامعة شيكاغو (CHICAGO)، حيث نلتمس أنّ من اهتماماتهم البحثية، السعي إلى دراسة وتحليل تأثير وسائل الاتصال الجماهيرية على الكتاب والقراءة من خلال دراستهم لمعرفة من يقرأ ؟، وماذا يقرأ ؟ ولمن يقرأ ؟

وتعتبر دراسة دوجلاس والبز (DUGLAS Walpes) من أشهر هذه البحوث، تبعتها دراسات ألمانية أخرى لوالتر هوفمان (WALTER Hoffman) حول الكتب ومن

يقوم بقراءتها لأول مرة في المجتمع الألماني . وظهرت الدراسات الميدانية وعمليات سبر الآراء للمدرسة الفرنسية ومن بين الأبحاث الميدانية، فوائد القراءة وعلاقتها بالمطابع ودور النشر، وماذا يحب أن يقرأ الفرنسيون، وكيف يقرؤون، وجاء هذا بعد التأثير الهائل للأبحاث السالفة الذكر.

أما روبير إسكاربيت ROBERT Escarpit فيرى أن القراءة " ليست مجرد فعل معرفة وإنما تجربة تلزم الكائن الحي في مظاهره الجماعية، والقارئ مستهلك وهو ككل المستهلكين يتصرف بتوجيه الذوق، أكثر مما يمارس حكما، حتى ولو كان كفؤا ، لأنه تبرير عقلي استدلالي على هذا الذوق". (روبير وأمال، 1999، صفحة 119).

ظاهرة القراءة وتعقيداتها:

عطفا على ما سبق، يبدو لنا أن القراءة هي عملية مركبة، كثيرة الجوانب والتعقيد، وهي ممارسة ترتبط بمجموعة من العوامل النفسية والاجتماعية، وهي معرفة أكبر قدر من المعلومات حول مجال من المجالات المعرفية أو التقنية أو التكنولوجيا، للرفع من المستوى الثقافي للفرد والاجتماعي، وهي مهارة من مهارات التفكير، سبيل لكل معرفة أخرى. سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية تقديم وتحديد ظاهرة القراءة وإبراز أبعادها، وتتتبع تطورها في المجتمع العربي، وهذا من منظور انثر وبولوجي. وقبل الغوص في تفاصيل هذه الإشكالية نقوم بعض هذه الآراء حول التعاريف الخاصة بهذا المفهوم .

إنّ الأصل في كلمة القراءة في اللغة العربية الجمع، و"كل شيء جمعته فقد قرأته، وسمي القرآن لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها لبعض...وتقرأ تعني تفقه، تنسك ويقال قرأت: أي صرت قارئا ناسكا" (ابن منظور ويوسف، 1988، صفحة 42).

هي" تحويل الرموز المكتوبة إلى كلام منطوق، وترقية تلك الرموز إلى معاني وأفكار، بهدف العلم والاستفادة من ذلك في الحياة العملية " (نصوص مختارة من النص

العربي الحديث، 2007-2008، صفحة 2)، و"من خلالها يصقل سماته ويكتسب الخبرات والمعارف، وتعكس الحاجات والمثل العليا المتغيرة للمجتمع الذي تنتجه، وتنقل الفكر الإنساني والتراث الحضاري من جيل إلى جيل" (عبد الله علي، 2011 ، صفحة 114).

فهي ذلك "النشاط العصبي والفيزيائي، ونشاط معرفي يعبر عن كل فضاء للاستهلاك الثقافي، وهي نشاط رمزي حيث كل قراءة تؤثر وتتأثر مع الثقافة والبيئة في عصر ما " (سحلول، 2001، صفحة 47).

وتزود القراءة الإنسان بمختلف العلوم، فرغم التطور الهائل لتكنولوجيا الإعلام والاتصال، لا يزال الكتاب مصدر القراءة والكتابة والمطالعة، فهي تعبير عن مظاهر التحضر ورمز النشاط الثقافي، وهي استباق وتنظيم وتأويل، فهي وعاء المعرفة والتفكير. وتداخل هذا المفهوم مع مفهوم آخر، هو القارئ " فالقارئ الجيد ليس الذي يجيد العمليات الآلية العضلية والعقلية الضرورية للقراءة، ولكنه هو الذي أشرب في قلبه حب القراءة لتحصيل المعارف وحل المشكلات" (القضاة، 2005، صفحة 84).

أما من الناحية السوسيو- انثروبولوجية هي ممارسة وعادة اجتماعية وثقافية مكتسبة من خلال التنشئة الاجتماعية، وخاصة ذلك الدور الذي تلعبه الأسرة في بناء وتكوين الشخصية للطفل وتشكيلها، لأنها عملية تعلم وتعليم وتربية تستند على التفاعل الاجتماعي، هدفها إعداد الطفل في مختلف أطواره الاجتماعية، وهي عملية اكتساب الثقافة واللغة والمعاني والرموز والمعرفة والمهارات.

وحسب علماء الاجتماع والانثروبولوجيا هي عملية تواصل اجتماعي وترسيخ لثقافة أفراد المجتمع،" فالعائلة التي تحتضن القراءة وتتقاسم ممارستها من طرف جميع أعضائها، فإنها تكون ببساطة نموذجا للطفل ويظهر ذلك جليا في تعوده ومؤلفاته لأصول القراءة" **(**Chantal **,** 2003, p. 57**)**. يعرف "بيار بورديو "Pierre Bourdieu" القراءة على أنها ممارسة ونشاط فكري وفني، قد يرجع إلى الاستعدادات الأولية التي تشكلت في نفسية

الفرد، ومرجعها الأساسي الأسرة والمدرسة، وبذلك تشكل لديه "هابتوس" habitus **الذي** يكون ميكانيزما mécanisme في فرض الميول الفنية والاختيارات الفلسفية والأدبية والتمايزات في المرجعيات، ويمثل قدرة خلاقة يستطيع الأفراد من خلالها خلق أفكارهم وإدراكاتهم وأشكال تعبيرهم وأنشطتهم، وحيثما وجد أول كتاب جرت أول عملية للقراءة .

يرى "بورديو" أنه كلما تلفظ كلمة قراءة –المطالعة- فإنها يمكن أن تحل محل مجموعة من المفاهيم الدالة على كل فضاء الاستهلاك الثقافي، المطالعة هي التي تظهر تلقائيا عندما يكون لدينا وقت لا نفعل فيه شيء، وعندما نأخذ أنفسنا منغلقين وعلى انفراد في مكان ما" (Bourdieu, 1985, pp. 267-276). وللمدرسة دور كبير ومؤثر في تعزيز عادة القراءة وتنمية التعليم والتثقيف، حيث يقوم المعلم بتشجيع ومساعدة الطفل على القراءة. وتقوم وسائل الإعلام على اختلاف أنواعها بالترويج والتوجيه لسلوكيات الأفراد نحو القراءة.

وبناء على الإطلاع على آراء بعض المؤرخين نجد أنه " لا يوجد أي شعب من الشعوب فوق الأرض ولعب دورا بسيطا في التاريخ ولم يعرف الكتابة" (nadia, 1992, p. 59). فهي " ظاهرة اجتماعية ناتجة عن تعميم التعليم والمقروئية على اختيار الكتاب، الذي كان حكرا على فئة قليلة من الناس وأصبحت مؤشرا على الحالة الثقافية في المجتمع" (أحمد، 2011، صفحة 114). واختلف تعريف الكتاب من باختلاف منابعهم الفكرية وتشريعات بلدانهم فمنهم من يعرفه انطلاقا من عدد صفحاته أو شكله أو وظيفته.

ترصد القراءة في المجتمع العربي:

أما المجتمع العربي في فترة من فتراته المتأخرة" لم يكن يتوفر على إحصائيات رسمية أو دراسات ميدانية أو مركز بحث أو مؤسسة إعلامية عربية تجيب بكل موضوعية لتتبع الظواهر الاجتماعية ودراستها وترصد معدل القراءة في المجتمع " (الشيب، 1998، صفحة 82).

كان مجتمع العرب يغلب عليه طابع ثقافة المشافهة معتمدا في ذلك على الاستماع والحفظ، وعرف عن هذه الشعوب أنهم أمة سماعة، وكانوا يفتقدون إلى الكتابة وان وجدت فكانت بأشكال محدودة، وبمجيء الإسلام الذي شجع على القراءة والمعرفة وتحولت هذه الثقافة المبنية على السرد والمحكي إلى ثقافة الكتابة، ومن هنا " تظهر كلمة قرآن نفسها مشتقة من القراءة، وبالتالي فإن الإسلام كان له الفضل في النهوض بالكتابة وتطويرها" (قطش، 1986، صفحة 26). ويعتبر أصل الخط العربي حسب بعض المؤرخين في مسالة نشأة الخط وتطوره أنه كان نقشا على الصخر في اليمن، إلى أن أصبح خطا أو كتابة مقروءة، وكانت من اختصاص مجموعة من الناس، مما يؤكد تواجد مدارس وكتاتيب لتعلم الكتابة والقراءة ككتاب الأنساب، وأنها وجدت بالقرب من أماكن العبادة، كما كان الشأن في ذلك عند المصريين القدامى، أو البابليين أو غيرهم من الشعوب بالشرق الأدنى.

يقول اللغوي ابن فارس إن أول من كتب "بالخط العربي والسرياني والكتب كلها هو آدم عليه السلام، وقبل موته بثلاث مئة سنة، كتبها في الطين وطبخه، فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه، فأصاب إسماعيل الكتاب العربي، فوضعه على لفظه ومنطقه" (بن زكريا وصقر، 1977، صفحة 10).

يعتبر الانتقال من الدور الشفوي الذي كان الميزة العامة للثقافة العربية قبل الإسلام إلى الدور الكتابي الذي كان الأساس في تفجير توثيق القرآن الكريم خوفا من التلف والضياع، ومرت هذه العملية على فترات ثلاثة، عهد الرسول محمد (ص)، ثم الخليفة أبي بكر، ثم تلاه الخليفة عثمان، وهذا بعد اختلاف القراءة وتوسع الدولة بعد الفتوحات. "فعلى الرغم من احترام في الإسلام للعلم المحفوظ ولحافظيه، فلا جدال أن الحضارة الإسلامية كانت تقوم على الكلمة المدونة" (روزنتال وانيس، 1980، صفحة 22). وتشتمل عملية الكتابة حسب القلنشدي على أربعة عناصر، الألفاظ والخط والقلم والغرض، ويقول "الكتابة

إحدى الصنائع فلا بد فيها من الأمور الأربعة، فمادتها الألفاظ التي تخيلها في أوهامه وتصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنه تامة في نفسه بالقوة، والخط الذي يخطه ويقيد به تلك الصور وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة والتها القلم وغرضها الذي لا ينقطع الفعل عنده تقيد الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكمل قوة النطق وتحصل فائدته للأبعد كما تحصل للأقرب" (القلنشدي، صفحة 36).

لم تتوفر أدوات الكتابة ومواردها في مكان اقرب إلى العرب بمثل وفرتها في مصر وفارس، إذ عرف عند المصريين ورق البردي الذي استخدم منذ ألاف السنين وشيدت له المصانع، كما عرف الورق الخراساني في بلاد فارس، ويقول ابن النديم في هذا المنوال "أن صناعا من الصين عملوا بخراسان على مثال الورق الصيني" (ابن نديم وشعبان خليفة، صفحة 11).

إن القراءة والكتابة في المجتمع العربي ازدهرت في فترة صدر الإسلام أين كانت الحضارة تقوم على الكلمة المدونة، ويعتبر جمع القران وتوثيقه أول حركة ثقافية، فبمجيء الرسول محمد (ص) شجع وأمر بتعليم الكتابة والقراءة وتعددت تخصصاتها وأنواعها وكثر الكتاب واختلف في عددهم، والكتابة في العصور الوسطى كانت تعني كتابة الوثائق، والمتمثلة في كتابة الإنشاء وكتابة الأموال، وتقلد هذه الصنعة منذ القديم صفوة البشر مثل الأنبياء، يوسف وسليمان ويحي عليهم السلام وكذلك الصحابة الكبار أمثال الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وغيرهم" (أبو العباس، صفحة 70).

انتشر العلم بشكل رهيب وازدهرت الحياة الثقافية في العصر العباسي وتشكلت نهضة ثقافية كبيرة وحضارية في العمارة والفنون، معتمدين في ذلك على مصادر الأمم الأخرى، وهذا ما ميزهم عن العصر الأموي الذي انشغل المسلمون فيه بدراسة القرآن والفقه، وبرز عصر التدوين وتأسست ثقافة الكتابة والقراءة، والتي كانت تعتمد على المشافهة في نقل وتلقين العلم. يقول في هذا الشأن جورج طرابيشي "والحال أن كل ما

يمكن أن يدل عليه تعبير عصر التدوين، هو أن ثقافة بعينها انتقلت من طور شفاهي إلى طور كتابي" (طرابيشي، 1998، صفحة 14). ودفع الإسلام الناس إلى العلم والتعليم، وأصبح العرب يلمون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافة متتالية، وقد مضوا في هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم، وكانت المساجد ساحة العلم الكبرى، ومعاهد لتعليم الشباب. وذكر السيوطي عن الإمام الذهبي في كتابه تاريخ الخلفاء في هذا العصر "كثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة مرتبة" (السيوطي، صفحة 197). ومن هنا " يأتي عصر التدوين كإطار مرجعي يلحق للعقل العربي وليس العصر الجاهلي ولا العصر الإسلامي الأول ولا ما قبلهما" (الجابري، 1998، صفحة 71).

لقد انتشرت الرحلة إلى طلب العلم وهي الظاهرة التي كانت سائدة عند العرب قبل الإسلام، ودونت الكتب ونقص الحفظ عند العلماء والصحابة والتابعين، التي كانت صدورهم بمثابة خزائن للعلم لهم، ولقبوا بالحفاظين، ومنهم الحفاظ ابن كثير، والحفاظ ابن ر جب وغيرهم كثر. واشتد الصراع الفكري بين من يحفظون ومن يكتبون في هذه الفترة من التاريخ الثقافي الإسلامي، حيث قال في هذا الصد احمد ابن حنبل:" حدثونا قوم من حفظهم وقوم من كتبهم وكان الذين حدثونا من كتبهم أتقن" (البغدادي، صفحة 109).

أدت حركة الترجمة وتوسعت كفعل ثقافي وحضاري متميز ولعبت دورا أساسيا في التأليف وتعدد طرقه. وحضي العلماء بمكانة اجتماعية مرموقة، وعينوا في مناصب سياسية وعلمية كبيرة، وتطورت القراءة في عهد الخليفة المنصور، الذي نقل وترجم كتب اليونان في الطبيعة والطب والمنطق والآداب إلى اللسان العربي، والخليفة الرشيد الذي اهتم بالعلم والعلماء حيث أسس ببغداد دار الكتب وسميت ببيت الحكمة التي احتوت على مترجمين كبار، وبعدهما الخليفة المأمون الذي كان مجلسه ساحة واسعة للجدل والمناظرة،

ويروى أنه كان مثقفا ثقافة واسعة بالعلوم الدينية والفلسفية، ويقول يحي بن أكثم " أمر المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا، وأحضرتهم وجلس لهم المأمون، فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم" (ضيف، 1966، صفحة 105). أما في الأندلس التي كان يسودها الاستقرار السياسي والاجتماعي، اهتم الخليفة الحكم بالثقافة الذي كان هو نفسه عالما محبا للعلم والمعرفة، وتطورت أدوات ووسائل الكتابة، من حبر وأقلام، وشمع وأختام، و" تطورت صناعة الورق وصناعة تجليد الكتب وزخرفتها وصنعت الآلات والأدوات الفلكية والطبيعية " (البغدادي، تاريخ بغداد، صفحة 105).

لقد توسعت هذه الصناعة بعد الاستيلاء على مدينة سمرقند وأصبح العرب يصنعون الورق وطوروا هذه الحرفة، وتطورت معها حروف الكتابة وانتشرت ثقافة القراءة والكتابة بين كل طبقات المجتمع، واشتهرت هذه البلاد بورقها الناعم والرقيق، وتشكلت الدواوين، وذكر اليعقوبي في هذا المجال" أن كثر في هذا الوقت الوراقون ووجدت أكثر من مئة حانوت للوراقين" (احمد محمود، 1968، صفحة 24).

كما ظهرت أسواق جديدة في هذا المجال كسوق الرقاقين (بائعوا الأدوات المكتبية) في قرطبة، وأسواق الوراقين (تجار الأدوات المكتبية)، وهم من أهل العلم والأدب ، وذكر بعض المؤرخين "أن الخليفة الحكم أنشا مكتبة احتوت على ما يقارب نصف مليون مجلد، وبنى مصنعا خصصه للتجليد ونسخ الكتب الجديدة الواردة إلى المكتبة " (مؤنس، 1978، صفحة 333). وفي هذا الصدد يرى غوتا سان حركة الترجمة خاصة في عهد المأمون كانت بمثابة ظاهرة تاريخية اجتماعية وثقافية، شارك فيها الجميع من الناس، "هذه الحركة الاجتماعية الفكرية، والمشاركة الجماعية التي يسرت لحركة الترجمة أنها ستمر نيفا وقرنين من الزمان وان تنتج هذه الحركة العلمية الكبيرة" (غوتاس وزيادة، 2003، صفحة 23). وأصبح العقل العربي في هذه الفترة عقلا متفلسفا وعقلا علميا، من حيث فهمه

بعلوم الأوائل وإسهامه فيها، وترجموا المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التي كان كثير منهم يحذقها، ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية.

"لقد كانت ظاهرة الترجمة ولازالت ملازمة لتاريخ الإنسان لأن تعدد الشعوب والأقوام واختلاف اللغات التي برزت نتيجة المناخ والبيئة والغذاء، أسهم في الحضارة الإنسانية وجعل ظاهرة الترجمة الأداة الوحيدة لسد حاجة التواصل بين البشر فرادى وجماعات" (سالم، 1999، صفحة 58). وقاموا بترجمة الفكر الإنساني ونقلوه إلى الغرب، هذا ما زاد في التشجيع على القراءة والمطالعة والانفتاح على ثقافة الأخر، ونشأت المكتبات مع بداية الحضارات الإنسانية، وتطورت عبر مراحل مختلفة، فعند الحضارة السومرية كانوا يطلقون عليها اللوحات الكبيرة، لما كانت تحتوي ألواح طينية، والحضارة الفرعونية أطلقوا عليها اسم بيت اللوحات وسميت باسم بيبليوتيكا (bibliotheca) " (بدر، 1985، صفحة 24).

أما عند العرب نشأت المكتبات مع نشأة المساجد، فالمسجد كان مركزا للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، ومركزا لإدارة الدولة وتسيير أمورها، وهذه المكتبات كانت تتميز بها الشعوب والأمم. فلولا هذه المكتبات لما صار كل هذا التقدم الرهيب في جميع المجالات. واستخدموا من خلال الكتابة أقراص الطين، وأوراق البردي، وتطورت الكتابة وانتشرت القراءة مع ظهور الطباعة على الورق، وظهرت معها حرف ومهن جديدة، وتوسع نشر الكتاب خاصة في الجامعات والمدارس الكبرى. وتعتبر دار الحكمة في عهد الخليفة الرشيد والتي كانت بمثابة الخزان الكبير للكتب في العصر العباسي، ودار العلم والتي جمع فيها العديد من الكتب وازدهرت أيضا وذاع صيتها في عهد المنتصر "حيث كانت تحتوي على 400 الف مجلد " (العجاج، 1980، صفحة 41).

كما ساهمت التجارة في ترسيخ ثقافة الرحلة في طلب العلم، ونظم الخط العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وسجل المعاملات الاقتصادية من حسابات تجارية وأموال

وأرزاق ورتب العلاقات الاجتماعية بتدوين العقود والوصايا، وبقي النص شاهدا على كل المعاملات بين الناس. كما " أن الكتابة النبطية التي عرفتها الحجاز تطورت تطورا سريع بسبب حركة التجارة، ونتيجة أيضا للحركة الأدبية التي قامت بالحجاز بسبب الأسواق الأدبية والتجارية، حتى أصبحت لها طابعها العربي الأصيل في أوائل القرن الخامس ميلادي " (فؤاد السيد، صفحة 60).

وتشكلت حلقات علمية تارة برعاية الخلفاء أنفسهم وانعقاد الجلسات الفكرية في الأوساط الشعبية تارة أخرى. وطوروا صناعة وإنتاج الكتب في خرسان وبغداد وشمال إفريقيا، مما دفع الناس إلى ممارسة القراءة والمطالعة الحرة في الوسط الاجتماعي، ونشطت أيضا الحالة الثقافية في عصر النهضة الذي تميز" بحركية اجتماعية سياسية وثقافية وانفتح المجتمع على التيارات الفكرية ووجد النقاش داخله" (جعيط، 2000، صفحة 39). انتشرت الكتابة والقراءة في ربوع المجتمعات العربية خاصة الأندلس ومنه انتقلت إلى أوروبا، هذا الانتقال الذي تزامن مع اختراع الطباعة على يد غوتنبرغ (Gutenberg) في القرن الخامس عشر، والتي ساهمت في انتشار مصادر المعلومات وانتشار أشكال أخرى من المكتبات، وبعد استخدام وسائل الاتصالات من تكنولوجيا وظهرت وسائل سمعية بصرية وشبكة المعلومات كالأنترنيت، وانتشرت الكتابة والقراءة بشكل رهيب في المجتمعات عامة والمجتمع العربي خاصة.

التحول الثقافي عند العرب/ من ثقافة الكلام إلى ثقافة النسخ:

انتقل العرب من ثقافة الكلام إلى ثقافة النسخ الذي نتج عنه حضارة إنسانية عظيمة ساهمت فيها مجموعة من الظروف السوسيو – ثقافية، وكان الإسلام منعرجا حاسما في حياة العرب، لأنه أحدث قطيعة مع التقاليد الشفاهية التي كانت تميز الثقافة العربية، كالترجمة التي تعتبر من الوسائل التي نقلت ثقافات الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم من لغة إلى أخرى، وجعلتها تنفتح على طرق التفكير، وجعلتهم ينتقلون من الشفاهي إلى المكتوب،

ومن المخطوط إلى المطبوع، مما ساعد على الانتشار الواسع للكتاب هو توظيف التكنولوجيا التي أحدثت ثورة جديدة في هذا المجال قربت المسافات بين البشر. وفي ظل البيئة التكنولوجية المتطورة والنمو المتسارع في نشر مصادر المعلومات والاستخدام المكثف لتقنيات المعلومات والاتصالات وأعمال الحوسبة واستخدام النظم المتطورة في اختزان المعلومات، وتغيرت عادات القراءة ونشأت القراءة الالكترونية ونتج وانتشرت أشكال وأنواع من الكتب الالكترونية التي هي "عبارة عن تمثيل رقمي لنص مطبوع، يمكن قراءتها على أجهزة الحاسوب الشخصية أو الأجهزة الكفية. والمكتبات الرقمية التي أصبحت تحقق الوصول السريع والفوري للمعلومات. كالمكتبات الرقمية أو الالكترونية والتي ظهرت منذ 1971على يد مايكل هارت (Michael Hart) "محاولا تمكين كل من يملك وصلته بالانترنيت وجهاز الكومبيوتر من الحصول وقراءة أمهات الكتب وصول المعرفة الإنسانية" (عبادة، 2015، صفحة 13).

ومن خصائص هذا التطور في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال، أنها سهلت عملية التواصل، وأصبحت مصادر المعلومات الالكترونية الشبكية والتي تعتبر نوع من أنواع أوعية المعلومات التي تحولت من شكلها الورقي التقليدي المطبوع إلى الشكل الذي يقرأ بالحاسوب، ومن أهم الاتجاهات الحديثة التي تشهدها المكتبات ومراكز المعلومات أنها أنتجت كتب ودوريات ومراجع الكترونية كالكتب الالكترونية، وتحولت الكثير من المكتبات من إستراتيجية الاقتناء والتملك لمصادر المعلومات إلى إستراتيجية الوصول إلى المعلومة بسهولة، من خلال الاشتراك بحيث يستطيع أي شخص الحصول على المعلومة دون عناء وتكليف. وكما كان الصراع في بداية التدوين بين من يحفظون ومن يكتبون في عهد صدر الإسلام، ظهر جدل بين مؤيدين ومعارضين خاصة المناهضين للكتاب الالكتروني الشيء الذي جلب انتباه كثير من الباحثين والمتخصصين حول مستقبل الكتاب الورقي، "الذين يشيرون بأن البلاد العربية بها نسبة أمية عالية، بحيث لا يستفيد الجمهور

من الكتاب الالكتروني الذي يحتاج إلى تكنولوجيا معقدة، أما المؤيدون فيعتقدون أن التكنولوجيا هي في صالح الكتاب الالكتروني لأنها تقرأ على أنواع متعددة من الأجهزة الالكترونية، وهناك دعوات إلى التحرك إلى عالم دون ورق." (عوض، 2011، صفحة 39).

خاتمة:

عطفا على ما سبق، نقول أنّ النشر الالكتروني يعتبر من أهم التقنيات المعاصرة التي تساهم في تعميم المعرفة، إلا أنه لا يزال النشر الالكتروني العربي بعيدا عن مجالات تطور هذه التقنية، ورغم كل هذا التدفق الهائل من المعلومات، يعيش العالم اليومي بشكل عام أزمة قراءة لم يعرف لها مثيل، ولعلّ من أهم الأسباب انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، والتي أصبح كثير من الناس أسرى لها. ولا نستثني المجتمعات العربية عن هذا الواقع، فلا يكاد الفرد أن يستغني عن هاتفه المحمول ويتركه من يده، فأضحت هذه الوسائل الحديثة تهدد عادات كانت راسخة في حياة الكثيرين، مثل قراءة الكتب والجرائد الورقية، مما ينعكس سلبا على فعل القراءة.

إن أدوات الجيل الثاني من الويب وإن اختصرت المسافات وأوجدت عالم لا يعترف بالحدود، وكرست ثقافة الحوار والتعرف على الآخر المختلف، فإنها في الوقت ذاته أنتجت نموذج قارئ ذي وعي سطحي، لا يناقش بعمق ما يعرض عليه من معلومات، ناهيك عن وجود ضعف يظهر جليا في حالات كثيرة، تتميز بوجود فقر في القاموس اللغوي، مما يجعله يعتمد على لغة هجينة في الحوار والكتابة، تعكس دلالة هوياتية هجينة، من منطلق أن اللغة أداة رئيسة، تتحدد من خلالها هوية مجتمع ما، فقيمتها غير مستمدة من بنيتها الصوتية وأنظمتها النحوية فحسب، بل يتعدى ذلك إلى قيمتها في السياق الثقافي والامتداد الحضاري، وكذا المرجعية الفكرية لها. بمعنى آخر تتجاوز اللغة كونها مجرد

أداة للتخاطب وتبليغ الأفكار، إلى كونها وسيلة تعبير عن الإدراك والوعي، ومن تمة التعبير عن مجمل التطلعات الحضارية لأي مجتمع ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

قائمة المراجع:

ألبرتو ،مانفويل.(2001). *تاريخ في القراءة*، ط1، دار الساقي بيروت لبنان.

حبيب، مونسي .(2007).*نظريات القراءة في النقد المعاصر*، منشورات دار الأديب، وهران ،الجزائر.

أحمد نافع، المدادحة وآخرون.(2013) .*عزوف الشباب عن القراءة الحرة*، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، الأردن .

روبير، اسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب.(1999). تر، أمال أنطوان، عويدات للنشر، بيروت.

ابن منظور، لسان العرب.(1988). المحيط، تقديم يوسف خياط، دار الجيل، بيروت.

نصوص مختارة من النص العربي الحديث قسم اللغة العربية وآدابها *مهارات القراءة والفهم*(2007-2008) جامعة ملك سعود 1428-1429 .

أحمد، عبد الله علي.(2011) .*مكتبة المجتمع العربي*، ط1، للنشر والتوزيع الأردن.

مصطفى ،حسن سحلول.(2001) .*نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه*، منشورات اتحاد كتاب العرب .

محمد فرحان، القضاة.(2005). *تنمية مهارات اللغة*، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن.

بدر، الشيب.(1998). مجتمع *لا يقرأ في زمن انفجار المعرفة*، مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث.

خالد، قطش. (1986).*الخط العربي وآفاق تطوره*، المطبوعات الجامعية، الجزائر.

ابن فارس ،بن زكريا، *الصحابي*.(1977). دار إحياء الكتب العربية ،القاهرة.

فرانتز، روزنتال.(1980). ط3، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، دار الثقافة للنشر، بيروت.

أحمد أبو العباس القلقشندى ، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا* ،ج1.

ابن نديم ، *الفهرست*، تحقيق شعبان خليفة،ج1.

جورج طرابيشي (1998) ، *إشكاليات العقل العربي* ، ط1، دار الساقي ،بيروت، لبنان .

جلال الدين ، السيوطي، .*تاريخ الخلفاء* ،موقع الوراق.

محمد، عابد الجابري.(1998)، .*تكوين العقل العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية .

الخطيب البغدادي. *تقييد العلم*، موقع الوراق.

شوقي، ضيف .(1966)،العصر العباسي الأول ، ط6، دار العلم، القاهرة .

الخطيب، البغدادي، *تاريخ بغداد*، ج1، بيروت.

عبد الواحد، احمد محمود.(1968)، *قصة الورق*، دار الكتاب العربي.

حسين، مؤنس .(1978)، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار مطابع المستقبل، بيروت.

ديمتري، غوتاس.(2003)، *الفكر اليوناني والثقافة العربية*، ط1 ، تر، نيقولا زيادة، مركز دراسة الوحدة، بيروت.

سالم، عيسى.(1999)، *الترجمة في خدمة الثقافة الجماهيرية*، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

بدر، احمد.(1985)، *المدخل إلى علم المعلومات والمكتبات*، الرياض، دار المريخ.

الخطيب محمد،العجاج.(1980)، *لمحات في المكتبة والبحث والمصادر*، بيروت.

أيمن فؤاد، السيد، *.الكتاب العربي المخطوط*:علم المخطوطات، ج1، القاهرة.

هشام ،جعيط .(2000)، *أزمة الثقافة الإسلامية*، دار الطليعة، لبنان، بيروت.

حسان، عبادة.(2015)، *المكتبات الالكترونية*، ط1، دار المعتز للنشر.

غالب ،عوض النوايسة (2011)، *.مصادر المعلومات الالكترونية*، ط1 ، دار صفاء للنشر، عمان.

المراجع باللغة الأجنبية :

Barthes, R .(1991.)*pour une théorie de la lecture*: actes du colloque internationale de tous, Orléans paris , Nathan.

Chantal ,S. (2003) .*Sociologie de la lecture* ,ED la découvert ,Paris.

Bourdieu, P. (1985.)*La lecture une pratique culturelle*, Marseille, ravage.

Anghlesen, N. (1992). *langage et culture dans la civilisation arabe*, l'armattan, paris.